سينما

صوّرت معاناة المهمّشين وتُوّجت في مهرجان كان السينمائي

نادين لبكي: أطفال الشوارع مسؤولية وطنيّة مشتركة!

بعد "سكر بنات" (2007) و"وهلأ لوين" (2011) اللذين قاربت فيهما الحرب وقضايا اجتماعية مختلفة بطريقة رومانسية، ها هي نادين لبكي تذهب الى قاع المدينة في فيلمها الروائي الطويل الثالث "كفرناحوم" الذي يدور حول اطفال الشارع ومكابداتهم من خلال زين، ابن 12 ربيعا

المخرجة نادين لبكي تتحدث الى "الامن العام".

شريط نادين لبكي "كفرناحوم" الذي طرح اخيرا في الصالات اللبنانية والعالمية، فاز بجائزة لجنة التحكيم في "مهرجان كان السينمائي الدولي" قبل اشهر، لتكون المخرجة اللبنانية الثانية التي تنال هذه الجائزة الرفيعة بعد الراحل مارون بغدادي. تتويج جديد للسينما اللبنانية التي باتت تحتل مكانها على الخريطة العالمية. الفيلم الذي كتب موسيقاه الفنان خالد مزنر، نقل الواقع بجرأة ورهافة، ولم يفته تسليط الضوء على الوجه الحقيقي والاصيل للمديرية العامة للامن العام، ودورها الحضاري وادائها الانساني.
"الامن العام" التقت المخرجة اللبنانية في حوار عن الفيلم ومسيرتها والفن السابع.

■ طغت الرومانسية على فيلميك السابقين "سكر بنات" و"وهلأ لوين". ما الذي أخذك في فيلمك الثالث "كفرناحوم" الى الواقعية الجديدة، والى التعمق في العالم السفلي لبيروت واحزمة بؤسها؟

> **انا من جيل صارت السينما جزءا من حياته خصوصا خلال الحرب**

□ منذ بدء مسيرتي، كان لديّ هذا الميل، لكنني لم استطع تحقيقه. اليوم، حين يسألني الناس عن فيلميّ السابقين، لا اتحدث عنهما باقتناع كامل لأنني اشعر انني لم اقم فيهما بما احب. الميل صوب الحقيقة والواقع وتقديم عمل يغوص بين الواقع والخيال، كان لدي منذ البداية. لكن عندما تكون في بداية خطواتك المهنية، لا يمكنك ان تدرك طريقة عملك حكما. كما ان العمل ضمن اطر السينما الكلاسيكية مع وقت التصوير المحدد والامكانات المحدودة وفريق العمل الكبير. كلها عوامل كانت تكبّلني. في بعض الاحيان، كنت اعود من التصوير واراجع اللقطات التي صوّرناها، واكتشف ان المشهد ليس ذاك الذي تخيّلته في رأسي. كمية الضغوط التي اعيش تحتها خلال التصوير كانت تكبّلني، وتجعلني اتخذ قرارت خاطئة. مثلاً، في فيلم "وهلأ لوين" انتهينا من التصوير، وفي غضون اربعة أشهر كنا نشارك في "مهرجان كان". لا اعرف كيف استطعت فعل ذلك، في حين ان "كفرناحوم" استغرق مونتاجه فقط سنة ونصف سنة، وستة اشهر من التصوير، وعامين من الكتابة. في المحصلة استغرقني هذا الفيلم اربع سنوات من العمل. الوقت كان العنصر الحاسم. فقد قررت ان استغرق كامل وقتي في هذا الفيلم.

■ هل يمكن اعتبار "كفرناحوم" مفترقا في مسيرتك المهنية؟

□ طبعا، لأنني اكتشفت الطريقة التي تمنحني جناحين خلال العمل، وتنفيذ ما احبه واريده. اكتشفت ان المهم ان اكون انا وفريق التصوير كله في خدمة الممثل لا العكس. هكذا، تتاح له الحرية. لا يمكن فعل ذلك من دون منحه الوقت الكافي. لهذا، كان الطفل زين اعجوبة الفيلم فعلا، وكذلك الطفل الاثيوبي يوناس. حتى اللحظة، لا استطيع ان استوعب كيف نجحت في جعلهما حقيقيين في ادائهما الى هذه الدرجة. هذا الفيلم اكبر منا، وكان هناك شيء يدفعنا الى انجازه.

■ لماذا اخترت "كفرناحوم" عنوانا؟

□ "كفرناحوم" في الاصل بلدة فلسطينية ورد اسمها في العهدين القديم والجديد، شهدت احداثا كثيرة، فصار اسمها يستعمل ليعني الخراب عبر التاريخ. في الادب الفرنسي الكلمة شائعة جدا، وكذلك في الادب الانكليزي، وبنسبة اقل ربما في الادب العربي. لكنني اذكر انني كنت استخدمها في مواضيع الانشاء عندما كنت تلميذة. حين بدأنا كتابة الفيلم قال لي خالد (زوجها الموسيقي خالد مزنر الذي وضع موسيقى العمل) ان ندوّن الكلمات والمواضيع التي نريد مناقشتها في الفيلم. بدأنا نكتب: العمالة الاجنبية، عمالة الاطفال، الاتجار بالبشر، الاطفال مكتومو القيد، زواج القاصرات... كل هذه المواضيع تشكّل هواجس زمننا الراهن. حين نظرت الى اللوح امامي مع كل هذه الكلمات، قلت له هذه كفرناحوم، الجحيم الذي نعيش فيه.

■ اين صوّرت الفيلم؟

□ صوّرنا في منطقة النبعة والكولا والكرنتينا بالقرب من مكب الزبالة، وفي سجني العدلية ورومية.

■ كيف وقع اختيارك على الممثلين، خصوصاً زين والعاملة الاثيوبية رحيل وابنها "يوناس" الذين برهنوا عن اداء مذهل ومؤثر جدا؟

□ زين هو لاجئ سوري اتى مع عائلته الى لبنان في بداية الحرب، واقاموا في منطقة المزرعة. بدأنا مرحلة اختيار الممثلين قبل حصولنا حتى على التمويل. كان لدي فريق من خمسة اشخاص توزّعوا على كل لبنان، بحثا عن بطل الفيلم. كانوا يجرون نوعا من مقابلة مع الاطفال حيث يتعمقون في شخصية الولد، ويحاولون معرفة شخصيته، وكان زين من بين هؤلاء الاطفال. مديرة التصوير التقت به في الشارع عندما كان يلعب مع الاطفال الآخرين. اجرت معه مقابلة، وشاهدت انا المقابلة وكان فعلا اكتشافا بالنسبة الي. كذلك الأمر بالنسبة الى رحيل ويوناس.

■ ما الذي جذبك في زين؟

□ حين بدأت افسّر لفريق العمل ما الذي اريده من ملامح في شخصية زين، قلت يجب ان يكون حجمه اصغر من عمره بسبب سوء التغذية، وان يكون هناك حزن في عينيه يظهر انه شاهد على كل هذه المأساة. يجب ان يكون قبضايا، معجونا بحياة الشارع حتى حديثه يجب ان يكون شوارعيا، وكلامه اكبر من عمره. خلال وصف هذه الملامح لهم، رحت اقول في نفسي انني أطلب ◄

نقطة على السطر

العالمية ولكن... ليس بأي ثمن!

فوز نادين لبكي بجائزة اساسية من جوائز مهرجان كان السينمائي العريق، هي جائزة لجنة التحكيم، عن فيلمها الجديد "كفرناحوم"، هو قبل كل شيء مجال للفخر والاعتزاز. مرة اخرى يثبت مبدعونا، خصوصا الاجيال الصاعدة، ان الفن الذي ينتجونه بلغ اعلى درجات النضج الفكري والجمالي والانساني، وانه قادر على الخروج من الدائرة الصغرى ليخاطب الانسانية جمعاء في معزل عن اللغة والثقافة والهوية والعرق والدين.... وغير ذلك من حواجز تحكم الخناق على هذا الكوكب.

هنا يجب ان نلفت النظر الى ان نادين لبكي، هذه المخرجة اللبنانية التي يشهد فيلمها "كفرناحوم" اقبالا واسعا في الصالات اللبنانية حاليا، حققت النجاح في بلدها منذ "سكر بنات"، ثم مع "وهلأ لوين؟"، قبل ان تحصد التصفيق والاعجاب والاعتراف خارج الحدود. عرفت كيف تخاطب مواطنيها وتستأثر بقلوبهم، قبل ان تلفت نظر الاعلام الغربي ونقاده ومنتجيه وموزعيه وسينمائييه ولجان تحكيمه.

هذا هو المسار الطبيعي لأي تجربة تمتلك الشرعية، وتستحق الاحترام: النبتة تطلع في ارضها، وتشرش في تربتها، ثم تنمو وتمتد وتتطلع الى الاعالي. الفنان يخاطب ضمير شعبه اولا، ويغمس ريشته او يراعته او كاميراه في اوجاع ناسه واهله وشعبه، في قصصهم وتجاربهم واحلامهم وتطلعاتهم وتساؤلاتهم وقضاياهم الملحة، وتكون اصالته وتعبيره عن وجدان الجماعة، وتجسيده لواقع محدد، هي جواز سفره لدخول المجتمعات الاخرى، غربا وشرقا، ومخاطبة الانسانية وتحقيق العالمية.

نشدد على الاصالة ليس كخطاب ايديولوجي، بل كقاعدة منطقية وطبيعية. اهل السينما الغربية الذين صفقوا وقوفا، دقائق طويلة، لنادين لدى تسلمها الجائزة، انما اقنعهم فريق الفيلم بأدائه وصدقه، ولفتهم الاسلوب الاخراجي والتصوير والموسيقى والنضج التقني، واخترقت وجدانهم تلك الحكاية الجارحة لاحد اطفال الشوارع في العالم السفلي لبيروت.

لم يقدم صناع الفيلم تنازلات للغرب في مقابل تحقيق النجاح والفوز بالشهرة والجوائز. وهذه نقطة مهمة تسجّل لهم.

كثيرون في لبنان والعالم العربي يستعطفون هذا الغرب. يتزلفون له، سياسيا وايديولوجيا وفنيا بحثا عن الاعتراف والرواج والتمويل. فتكون الخيانة مزدوجة للذات والشعب. يخسرون مرتين: روحهم القائمة على الاستقلالية والجرأة والصدق مع الذات، وفنهم الذي يصبح نوعا من الترويج والعلاقات العامة اقرب الى ورود البلاستيك البلا روح منه الى الورود الحقيقية.

كم فيلما لبنانيا، عربيا شاهدنا، يقدم للغرب ما يحب ان يراه، ويصور الواقع بطريقة استشراقية، ويزوّر السردية على حساب الصدق والامانة. هذا ولن نتوقف عند الافلام التي تتنازل سياسيا ووطنيا طمعا في دخول هوليوود او الفوز باوسكار.

ليس هناك اصعب من خيانة الوطن الا خيانة الذات. نأمل في ان يبقى كتابنا ومخرجونا ومؤلفونا خصوصا في الاجيال الجديدة مثل نادين لبكي، وان يصلوا الى العالمية من دون تقديم تنازلات فنية او اخلاقية.

سمير مراد

◄ معجزة منهم، فأين سيجدون هذا الفتى؟ الامر نفسه ينطبق على رحيل وطفلها يوناس.

■ ما المصاعب في ادارة ممثلين هواة وما الايجابيات في ذلك؟

□ المصاعب تكمن في انك تحتاج الى الكثير من الوقت كي تصل الى هدف المشهد. كان الوقت هاجسي في هذا المشروع، وكل الاموال صرفت على هذه النقطة تحديدا. المشهد لن ينجح منذ المحاولة الاولى، فانت لا تعمل مع ممثلين محترفين، يحفظون دورهم ويعرفون المطلوب منهم. اما الايجابيات، فهي انك تقدم الحقيقة التي لن يستطيع اي ممثل ان يقدّمها. لهذا السبب، دوري انا (تجسد دور محامية زين) في الفيلم بات صغيرا جدا بعدما كان كبيرا، اذ شعرت انني لو ابقيته في حجمه، سأكون كاذبة بمعنى انني الشخص الوحيد الذي لم يعش هذه الحالة وهذه الظروف، وهذه الكذبة كانت واضحة بالنسبة الي.

■ اين تنتهي الحدود بين الخيال والواقع في الشريط؟

□ الخيال هو المحكمة التي يقاضي فيها زين عائلته في الفيلم. في الحياة الواقعية، ليس هناك من مجال ان يرفع طفل دعوى قضائية على اهله.

مع "بطل" فيلمها في اثناء التصوير.

■ صحيح انك قاربت اطفال الشوارع في الفيلم، لكنك مررت على جملة قضايا منها وضع العاملات الاجنبيات في لبنان وزواج القاصرات وحياة اللاجئين السوريين والاطفال مكتومي القيد والعمال السريين والاتجار بالبشر والفساد والفقر والهجرة السرية. ألم تخشي ان تثقل هذه التيمات ربما على المشاهد اللبناني الهارب من مشاكله وهمومه؟

□ طبعا فكرت فيها، لكن في النهاية، كل هذه القضايا مترابطة بشكل وثيق، ولا يمكن تجزئتها. لا يمكن التحدث عن عائلة في وضع عائلة زين، تكون خالية من زواج القاصرات ومكتومي القيد، ليس بسبب حسابات سياسية معينة، بل لأنهم لا يملكون مالا لتسجيل ابنهم. بالتالي تسقط حقوقه في الطبابة والتعلم، ويعيش على هامش المجتمع. مشكلة العاملات الاجنبيات انهن يعشن في المنطقة الجغرافية نفسها، اضافة الى مشكلة اللجوء وغيرها. كل هذه المواضيع مترابطة وكان امرا بديهيا بالنسبة الي التحدث عنها جملة.

■ بعض النقاد اخذ عليك هذه النقطة، معتبرا انه تنقصها الصدقية؟

□ صحيح ان الطفل في لبنان لا يستطيع رفع دعوى على اهله الذين هم اولياء امره. ولكي نورد هذا الفعل الرمزي في الفيلم، اضطررنا الى المرور من بوابة الاعلام، اي اتصال زين من سجنه ببرنامج جو معلوف، والقول له انه يريد رفع دعوى قضائية على اهله، وتحول قصته الى قضية رأي عام في الاعلام كي يستطيع هذا الطفل ايصال صوته ووجعه. بالنسبة الي، كان هذا الامر رمزياً، لكن ما هو واقعي اننا اجرينا مقابلات مع المئات من اطفال الشوارع، وكان الكل يجمع على جواب واحد حين نسألهم ان كانوا سعداء انهم أتوا الى هذه الحياة. كان جوابهم بالنفي، واغلبهم كان يتساءل لمَ هو في الحياة ان كان سيتعرض للضرب، ويعيش في هذه القسوة. آخرون قالوا انهم يفضلون الانتحار، او يسألون عن الجريمة التي ارتكبوها لعيش هذه الحياة، او يسألون عن جدوى وجودهم في الحياة. لذا، اردت ان اوصل صوت هؤلاء الاطفال في الفيلم. لفعل ذلك، يجب ان يكون على لسان طفل منهم، وفي المحكمة حيث يرفع دعوى على اهله لأنهم انجبوه. فهو يحاكم المنظومة والمجتمع والسلطة برمتها.

■ اخترت نهاية سعيدة نوعا ما للفيلم خصوصا مع لقاء رحيل بيوناس. لماذا وانت تعرفين ان السواد الاعظم من نهايات هؤلاء المسحوقين والمهمشين لن تكون سعيدة؟

□ في النهاية، زين سجّل انتصارا صغيرا، هو انه نجح في ايصال صوته الى المجتمع. هذا ما اردت قوله رغم انه ظل في السجن في الفيلم. لو خرج من السجن وانتقل الى العيش في منزل، لأمكننا القول ان النهاية سعيدة. ولا حتى حياة رحيل في الفيلم كانت اجمل. صحيح انه اعيد اليها طفلها يوناس الذي اخذ منها، الا انها رحِّلت معه خارج لبنان.

■ هناك نوع من الادانة والحكم في نظرتك كمحامية تجاه والدة زين في الفيلم. ماذا اردت القول من وراء ذلك؟

□ هدف المشهد كان كسر الاحكام المسبقة على الأم. فهي تقول لي انني لم اعش ما عاشته، ولم اكابد ولو ربع ما كابدته في الحياة، خصوصاً واننا كثيرا ما نحكم على الأم في هذه الحالات ونحمّلها الذنب والمسؤولية، ولا نفكر في ظروفها الخاصة التي دفعتها الى عيش هذه الحياة.

■ هذه المرة الثانية ينال فيها مخرج لبناني جائزة في مهرجان كان السينمائي بعد مارون بغدادي عام 1991 مع "خارج الحياة". ما هو احساسك تجاه ذلك؟

□ هذا الفيلم استنفد كل طاقاتنا، لذا جاءت الجائزة كمكافأة كبيرة لي وطاقم العمل. تشعر انك لم تخذل كل هؤلاء الذين وضعوا ثقتهم بك. يمكن القول ان السينما اللبنانية فرضت نفسها على الخارطة العالمية، بوجود الكثيرين من المخرجين اللبنانيين كزياد دويري في الاوسكار وغيره.

لقطة من فيلم "كفرناحوم".

■ هل الوصول الى العالمية يوجب تقديم تنازلات او الخضوع لذوق الغرب؟

□ بالتأكيد لا، فالجمهور الغربي ليس ساذجا، بل يعرف جيدا متى يكون المخرج صادقا ومتى يكون كاذبا.

■ فيلمك أثّر جدا في لجنة تحكيم مهرجان كان. اخبرينا عن ذلك؟

□ اجل كثيرا الى درجة انه لدى عودتنا من كان، تلقيت رسالة رسمية من المفوضية السامية للامم المتحدة لشؤون اللاجئين مفادها قبول لجوء زين رسميا الى النرويج مع عائلته. كما ان الممثلة كيت بلانشيت رئيس لجنة تحكيم المهرجان وسفيرة الامم المتحدة ايضا نقلت قضية زين بعد تأثرها الكبير بقصته في الفيلم.

■ هل تؤمنين فعلا بقدرة الفن على تغيير الواقع الذي نعيشه؟

□ بالتأكيد لأنني اختبرت ذلك بنفسي.فكم مرة خرجت من مشاهدة فيلم، وقد تغير شيء ما داخلي، او قرأت جملة في كتاب، وقد شعرت بأنها تعبّر عني تماما، وغيّرتني الى الابد. كما اؤمن

على الفن مقاربة المواضيع السياسية، اما السلطة فمطالبة بسماع رسائله

بضرورة تدخّل الفن في السياسة، وسماع السلطة السياسية لرسائل الفن، لأنه بالطريقة التي نعيشها اليوم نحن ذاهبون الى الخراب، والفن هو المخلص الوحيد.

■ منذ بدايتك مع الكليبات الغنائية إلى اليوم، ما الذي تغير في نادين لبكي الانسانة والمخرجة؟

□ تغيّرت امور كثيرة، بل صرت انسانة اخرى اليوم. هناك النضوج والخبرة في الحياة والافراد الذين تلتقيهم، والمواقف التي تتعلّم منها. في بداية مسيرتك تكون ساذجا نوعا ما، تتعثر وتتعلم ما هي السينما، خصوصا وان لا تاريخ سينمائيا كبيرا في لبنان. تعلّمت السينما بنفسي حين بدأت انجز افلامي.

■ ما هي في رأيك سمات جيلك من السينمائيين اللبنانيين؟ وما الذي تتميز به نادين لبكي بشكل خاص عنه؟

الطفل زين الرافعي في مشهد.

□ هو جيل لديه الكثير من الامور التي يريد قولها. المخرج الآتي من هذه البقعة من العالم، لديه الكثير لقوله، فالتربة خصبة جدا بالمواضيع والقضايا، وتشعر ان المخرج اللبناني يصنع فيلمه بدمه وعرقه ولحمه الحي، فالأمر صعب جدا. لكن ما لا احبه هو التكبّر عند بعض المخرجين الذين يعتقدون ان الفيلم الواضح والمفهوم ليس جيدا، او ذاك الذي يحقق نسبة عالية في شباك التذاكر هو تجاري وليس سويا من الناحية الفنية.

■ انت انسان مطلع على السينما العالمية، وتتابعين كل جديد، كيف بدأت قصة شغفك بها؟

□ في بعبدات، كان جدي يملك صالة سينما صغيرة فقيرة. كان والدي يحدثني عنها دوما، وكيف كان يدخل صالة العرض ليشمّ فقط رائحة الافلام. كان مغرما بالسينما، لكن ظروف عائلته المادية لم تسعفه لتعلّم الاخراج. ربما اردت ان انتقم له من خلال تعلمي الاخراج. كما انه في صغرنا صارت السينما جزءا كبيرا من حياتنا، خصوصا خلال الحرب. كنت نقطع المتاريس لنستأجر افلاما ونشاهدها مرارا وتكرارا، لأنه لم تكن لدينا خيارات كثيرة. اكتشفت انه اذا اردت ان اخلق عالما خارج الضجر والروتين اليومي الذي اعيشه، فإن ذلك لا يكون الا بالسينما. فهي المكان الذي كان يتيح لي التنفس والفرح والحلم، ووالدي شجّعني جدا.

س. م.